تقـــدم

قابلت « برستد » للمرة الأولى فى حياتى فى أوائل عام ١٩٢٦ . وكنت إذ ذاك طالباً أدرس الآثار ، ورأى زملائى أن ندعو ذلك العالم الشهير إلى حفلة شاى صغيرة فى فندق الكونتنتال .

كنا جمعاً متشوقين لرؤيته ، وكثيراً ما سمعنا اسمه يتردد على ألسنة أساتذتنا ، وكانت مؤلفاته بين أيدينا منذ الأسبوع الأول فى دراستنا ، ولكن هذا الشوق لمقابلة برستد لم يكن لأجل لقاء عالم عظيم فحسب ، بل كان له مغزى آخر .

جاء برستد إلى مصر فى ذلك الشتاء ومعه عرض من الثرى الأمريكى جون روكفلر لتقديم مبلغ عشرة ملايين دولار إلى مصر لبناء متحف على أحدث طراز للآثار المصرية وما يلحقه من مكتبه ومن معامل لصيانة الآثار ووسائل المحافظة عليها .

ولم يشترط صاحب الهبة شيئاً أكثر من أن تقدم مصر الأرض اللازمة لإقامة المبنى عليها، وأن يشرف على المتحف وملحقاته لمدة ثلاثين عاماً لجنة مكونة من ثمانية أشخاص يمثل اثنان منهم دولة من الدول الأربع : مصر ، وأمريكا ، وانجلترا ، وفرنسا . ثم يؤول بعدها كل شىء إلى مصر .

ولكن لأسباب لا داعى لذكرها رفضت حكومة مصر بعد مفاوضات دامت عدة شهور هذا العرض، وانقسمت الصحافة بين محبذ وناقد ، ولكننا شعرنا ونحن طلبة حديثى السن أن مصر خسرت خسارة كبرى من هذا الرفض ، ولهذا أردنا أن ندعو الرجل إلى حفل بسيط لنعبر له عما نشعر به . وتحدث الرجل إلينا مجملا ما حدث ، وشاكراً لنا ما أحسسنا به . وأظهرت الأيام بعد ذلك أن مصر خسرت كثيراً وأضاعت عليها فرصة كبيرة .

ودارت الأيام دورة أخرى وقابلت برستد مرة ثانية فى ربيع ١٩٣٥ عندما

كان فى آخر زيارة لمصر . لم أره هذه المرة للحظة قصيرة أو استمعت إليه وهو يلقى خطاباً . بل كان لى حظ لقائه مرات . وكنت فى ذلك الحين مفتشاً للآثار فى الأقصر . وكنت أكثر من الذهاب إلى مكتبة المعهد الشرقى التابع لجامعه شيكاجو للاطلاع . فكان لى حظ لقائه والاتصال به ومصاحبته فى الذهاب إلى كثير من مواقع الآثار .

كان يحدثنى عن ذكرياته وهو طالب فى أمريكا وفى ألمانيا . وكان يحب أن يحدثنى عن ذكرياته فى المناطق الأثرية وخاصة عندما زار آثار الأقصر للمرة الأولى فى عام ١٨٩٤ . وكان يحدثنى عن نتائج حفائر بعثات المعهد فى مختلف بلاد الشرق ، وكان يسألنى عن دراساتى وعن هواياتى ، وكنت أحس بعد كل مقابلة أن الرجل فتح عينى على حقائق لم أكن أعرفها . وكانت له شخصية تحبب الإنسان فى العلم والعلماء ، وكان يؤمن بعظمة مدنيات بلاد الشرق القديم . وبالرغم من أن اختصاصه الأساسى كان فى علم الآثار المصرية إلا أنه كان يؤمن إيمـــاناً صادقاً أنه لكى نفهم دور الحضارة المصرية على الوجه الصحيح يجب أن يبدأ الطالب بدراسة حضارة الشرق القديم عامة .

لم يكن هذا رأى برستد فى عام ١٩٣٥ فقط أو أنه بدأ يؤمن به بعد أن اتسعت آفاق دراساته وأبحاثه ولكنه آمن به منذ أن كان طالباً فى شيكاجو ، وبدأ يدرس اللغة العبرية استعداداً لدراسة اللاهوت ليصبح رجلا من رجال الدين . وزاد إيمانه به يوم أقنعه أستاذه فى اللغة العبرية أن ينبذ فكرة دراسة اللاهوت لأنه خلق ليكون مستشرقاً ونصحه بالاتجاه نحو الآثار المصرية . وكمل إيمانه عندما أتم دراسته فى أمريكا وسافر إلى برلين رغم كل الصعاب المالية ، وقرر أن يتخصص فى دراسة علم المصريات .

حصل برستد على الدكتوراه من برلين فى عام ١٨٩٤ ونشر أول أبحاثه بعد ذلك فى عام ١٩٠٠ عن الملك تحوتمس الثالث . وفى عام ١٩٠٣ نشر كتاباً له عن

موقعة قادش التى خاضتها الجيوش المصرية فى سوريا ثم نشر بعد ذلك كتباً متعددة جعلت اسمه على كل لسان وخاصة كتبه عن تاريخ مصر .

وفى عام ١٩١٦ ظهر له كتـــاب جديد هو كتاب « العصور القديمة — Ancient Times » الذى لاقى نجاحاً لم يلقه كتاب من نوعه فى جميع الدوائر العلمية ، والذى انتشر بين أيدى الطلبة فى كل أنحاء العالم وهو الكتاب نفسه الذى نقحه ونشره بعد ذلك بعشر سنوات تحت اسم انتصار الحضارة The Conquest of Civilization والذى زاد عليه ونقحه مرة أخرى قبل وفاته ونشر بعد موته بثلاث سنوات ، وهو أيضاً الكتاب الذى نقلنا منه الفصول الثمانية الأولى إلى العربية ونشرناها فى هذا الكتاب .

وهناك قصة طريفة عن سبب قبول برستد وضع هذا المؤلف .

كان لبرستد جار صديق اسمه هيلتون من المساهمين الرئيسيين فى إحدى شركات النشر الكبرى ، حاول هيلتون كثيراً فى عام ١٩١٢ أن يغرى برستد بكتابة مؤلف عن التاريخ القديم ليكون فى أيدى طلبة المدارس الثانوية هناك ولكنه كان يرفض قبول كتابته رغم ما كان فيه من ضائقه مالية شديدة لأن ذلك سيضطره لتعطيل أبحاثه الخاصة مدى ثلاث سنوات على الأقل .

ولم ييأس هيلتون ، وعمد إلى حيلة بارعة إذ جمع الكتب التى كانت فى أيدى الطلبة عن التاريخ القديم وأرسلها إلى صديقه ليطلع عليها ويجيبه عما إذا كان ضميره يسمح أن تكون هذه الكتب مصدراً لثقافة الطلبة الأمريكيين . ويذكر شارل برستد ابن المؤرخ العظيم فى كتابه عن حياة أبيه أن تلك الكتب ظلت عدة شهور لدى أبيه دون أن يتمكن من فحصها . فلما فعل كان أثر هذه الكتب فى نفسه هو ما أراده هيلتون . ورأى برستد أن كل هذه الكتب ماعدا اثنين أو ثلاثة كادت تهمل الشرق إهمالا تاماً وكأن الفضل كله يرجع إلى اليونان والرومان . وفى تلك الكتب التى أشار فيها مؤلفوها إلى الشرق كانت كتاباتهم عنه قليلة وفيها

الكثير من الغموض بل والأخطاء الصارخة . وكتب برستد فى مذكراته اليومية فى ذلك التاريخ عن مؤرخى حضارات اليونان والرومان فقال أنهم يريدون قتل حضارة الشرق عمداً لأنهم يريدون إخفاء الحقيقة ، ورد على هيلتون قائلا : « إنى أقبل أن ألبى طلبك وأكتب كتاباً لطلبة المدارس عن التاريخ القديم على شريطة أن تسمح لى أن أخصص ثلث صفحاته للشرق القديم » ، وانقطع برستد نحو ثلاث سنوات لتأليف هذا الكتاب الذى صدر أخيراً فى يوم ١٤ أغسطس ١٩١٦ عندما كانت الحرب العالمية الاولى على أشدها .

آمن برستد أن الشرق القديم هو مهد المدنيات والحضارات وأنه كان المعلم الأول للبشرية ، وفى مختلف بقاعه بدأ الانسان يخطو خطواته الأولى نحو المدنية . لم يكن هذا الشرق صاحب الفضل فيما وصل إليه من كثير من أسس مدنيته المادية فحسب بل كان له فضل أعظم وأكبر من ذلك لأنه كان مبعث ذلك النور الروحانى الذى أضاء نفوس الناس وهذب من طباعهم ، فعلى ضفاف النيل بدأ الناس منذ آلاف السنين يؤمنون بالبعث ويدعون إلى حياة طاهرة ، ووصلوا منذ آلاف السنين إلى أسمى ما يفكر فيه الناس من دعوة إلى الخلق الكريم ، وكان فى مصر كما فى غيرها ديانات وأساطير وآداب انتشرت بين شعوب العالم القديم وتغلغلت معانيها ومراميها فى النفوس ، وكان لها أثرها الكبير عندما أخذت تلك الشعوب ترقى سلم المدنية وقدر لها أن ينتشر دينها وأدبها بين غيرها من شعوب العالم .

وزاد إيمان برستد بأهمية حضارات الشرق بعد أن بدأ يجوب بلاده منذ عام ١٩٢٠ وأخذ يعد العدة لتحقيق حلم قديم له وهو إنشاء معهد للدراسات الشرقية فى شيكاجو والقيام بحفائر فى مختلف بلاد الشرق القديم ، فى مصر ، وفى العراق ، وفى فلسطين وفى سوريا ، وفى ايران ، وفى تركيا . وأخذت حفائر المعهد الشرقى تأتى بنتائج باهرة جديدة ، وزاد اهتمام العالم كله ببلاد الشرق القديم ، واهتمت حكومات البلاد الشرقية والمعاهد والمتاحف الأوربية بدراسة آثار الشرق وحضاراته ، فشهد العالم

بين أعوام ١٩٢١ ، ١٩٣٩ نهضة أثرية لم يكن للناس عهد بها من قبل ، وأدت بعثات المعهد الشرقي وعلماؤه واجبهم خير الأداء ونشروا أبحاثهم فى مئات من المقالات والكتيبات والتقارير والكتب ، وكان برستد شيخ المؤرخين حركة دائبة مستمرة بين شيكاجو وبلاد الشرق ، وكانت أعماله الادارية ومسئولياته كثيرة ولكن لم يمنعه ذلك من أن يفكر فى اصدار طبعات منقحة جديدة أو بعبارة أخرى يعيد كتابة بعض مؤلفاته . ومنها كتاب « انتصار الحضارة » الذى أعد له كثيراً من الزيادات والاضافات ، ولكنه مات فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ وهو فى سن السبعين دون أن يقدمه للمطبعة . فقامت بذلك مساعدته الدكتورة إديث وير Edith Williams Ware وظهرت الطبعة الأخيرة فى عام ١٩٣٨ تحمل اسم مؤلفها وعلى صفحتها الأولى كتب الناشر : «طبعة جديدة . أعيدت مراجعتها وترتيبها اعادة كاملة . تحوى نصا جديداً فيه استدراكات وملاحظات المؤلف نفسه »

ولكن موت برستد لم يمنع معهده من الاستمرار فى تأدية رسالته ولم يمنع مساعديه وتلاميذه من السير بالأبحاث الأثرية إلى الأمام ، ونشر كثير منهم كتبا عـــدة فى تاريخ مصر وغيرها من بلاد الشرق القديم ولكن لم يكتب واحد منهم كتابا ليحل مكان كتابه عن « انتصار الحضارة » رغم مضى سبعة عشر عاما على ظهوره .

وانى مؤمن أشد الإيمان بأنه لن يمكن لأى طالب من طلبة التاريخ فى أى شعب من شعوب الشرق أن يفهم تاريخ بلاده القديم دون أن يدرس فى الوقت نفسه تاريخ الأمم المعاصرة لها . ويعرف ما أخذته مدنية بلاده وما أعطته ، ويجب عليه أن يدرس أولا تلك الحضارة مجتمعة ثم يستزيد من أى واحدة منها كما يشاء .

وكتاب «انتصار الحضارة» من خير الكتب التى ألفت لمتعة الطلبة ، لم يقصد به مؤلفه أن يكون للمختصين أو المتعمقين فى البحث أو الذين يعنون بالتفاصيل ولكنه مكتوب للطالب المبتدىء الذى يريد أن يعرف كيف تطورت المدنية

وكيف ارتقى الانسان وماذا وصل إليه فى حضارته فى كل بلد من بلاد هذا الشرق. كتبه بلغة سهلة مقبولة. وهو موضوع فى الأصل للطالب الأمريكى، ولكنه صالح دون شك لكل طالب فى كل مكان.

ويحوى كتاب «انتصار الحضارة» ثلاثين فصلا ومجموع صفحاته ستمائة وخمسون لم يترجم منها فى هذا الكتاب إلا الفصول الثمانية الأولى ومجموع صفحاتها مائتان وأربع وثلاثون وهى التى تتناول شعوب الشرق القديم فقط اذ يبدأ تاريخ اليونان وغيرهم من شعوب العالم بابتداء الفصل التاسع.

ولم اتردد كثيراً فى قبولى الاشراف على نقل هـــذه الفصول الثمانية إلى اللغة العربيـة لثقتى التامة بأن القارىء العربى وخاصة الطلبة فى مسيس الحاجة إلى مثلها، وأسأل الله جل شأنه أن يستفيد منها أبناء الشعوب العربية ما استفاده زملاؤهم من الطلبه الغربيين. فانها فصول كتبها رجل عالم عظيم آمن بحضارة اجدادهم وظل إلى يوم وفاته يعمل بجد واخلاص لنشر فضل الشرق ومدنيته على البشرية جميعا

والله ولى التوفيق

أحمد فخرى

القاهرة فى ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٤ هـ

الموافق ٢٢ ابريل سنة ١٩٥٥ م